

تفسير الظواهر النفسية من منظور ثقافي

د. هشام حنفي العسلي

العناصر الرئيسية

- مستويات تفسير الظواهر
- تعريف الثقافة
- علم النفس عبر الثقافي
- منحى السرعة العقلية
- افتراضات منحى السرعة العقلية
- المهام المعرفية الأولية
- الأدلة المؤيدة لمنحى السرعة العقلية
- الانتقادات الموجهة لمنحى السرعة العقلية
- الانتقادات الموجهة لعلم النفس عبر الثقافي

مستويات تفسير السلوك في علم النفس

المستوى	النطاق	مثال
الأدنى	متغيرات بيولوجية المنشأ، مثل النواقل العصبية، الهرمونات، بناءات المخ، سرعة التوصيل العصبي	دور الاستيل كولين في أداء الذاكرة لوظائفها.
الأوسط	متغيرات داخل الشخص، مثل المهارات والقدرات، والسمات، والاتجاهات.	العلاقة بين سمات الشخصية والأبداع. العلاقة بين الاضطرابات النفسية والاعتماد على الكحوليات.
الأعلى	عبر الأشخاص والجماعات، مثل القيم الثقافية السائدة.	الفروق بين النساء والرجال في معدلات الإصابة باضطراب الاكتئاب عبر ثقافات متنوعة.

وبطبيعة الحال، لا يهدف هذا التقسيم إلى إقامة جدران فصل تعسفي بين مستوى وآخر، تؤدي فيما بعد إلى اجتزاء الظواهر النفسية من سياقها وطرح تفسيرات ضحلة لسلوك بشري شديد التعقيد. وما يفهم من هذا التقسيم، أن الظاهرة السلوكية الواحدة قد تفسر في ضوء مناظير رؤية ومستويات تفسير متنوعة، وأن التخندق داخل إطار تفسيري واحد وإغفال الأطر الأخرى يعمينا عن بناء فهم علمي متكامل للسلوك البشري.

الثقافة وعلم النفس

• بدأت دراسة الثقافة منذ زمن بعيد، وتوسعت شيئاً فشيئاً لتشمل حقول بحثية عديدة.

• لهذا لم يكن من المستغرب تأكيد كروبر Kroeber وكلوكهون Kluckhohn (١٩٥٢) على أن مفهوم الثقافة قد أصبح بمثابة حجر الزاوية في كثير من العلوم الاجتماعية، وأنه يضارع في أهميته التفسيرية، وعمومية تطبيقه مفاهيم أخرى مثل مفهوم الجاذبية في الفيزياء، ومفهوم المرض في الطب، ومفهوم التطور في البيولوجي.

تعريف الثقافة

• كروبر وكلوكهون (١٩٥٢) أحصيا ما يزيد عن ١٦٠ تعريفا لمفهوم الثقافة .

• أحصى لونير Lonner (١٩٩٤) ما يزيد عن ٢٠٠ تعريف .

• "مجموعة من أنماط القيم المشتركة التي يتبناها الأشخاص الذين ينتمون لجماعة ما .

• طريقة الجماعة الخاصة في إدراك الجزء المصنوع بشريا من بيئتها . ويدخل إدراك الأدوار وقوانين الجماعة وأعرافها ومعاييرها، وقيمها ضمن جوانب الثقافة الذاتية . والأشخاص الذين يعيشون في النطاق المكاني ذاته، ويتحدثون نفس اللهجة، وينخرطون في أداء الأنشطة ذاتها يتقاسمون على الأرجح الثقافة الذاتية نفسها (Triandis, 1972) .

• المحصلة الكلية للمسلمات المشتركة التي تعلمتها جماعة ما على مدار تاريخها وهي بصدد مواجهة تحديات وجودية تفرضها البيئة الخارجية، أو مشكلات تهدد تكاملها الداخلي (Schein, 1999) .

• "شيء يكتسب، سواء كان صناعة بشرية أو لم يكن؛ وهي ليست اسما وإنما فعلا . ولهذا قد يحدث التناقض في أي مكان، مخترقا الحدود المتوهمة بوعي كامل أو من دون وعي (Squire, 2000) .

علم النفس عبر الثقافي

"الدراسة العلمية لتأثير القوى الاجتماعية والثقافية في تشكيل السلوك البشري وانتقاله".

- يهدف إلى إنتاج علم نفس كلي، تنطبق قوانينه على عموم البشر. ويرتكز ذلك إلى مسلمة الوحدة النفسية.
- يُنظر فيه لدور المتغيرات الثقافية باعتبارها متغيرات سابقة على وجود الشخص، وتقع خارجه، ومستقلة عنه.
- تتضمن دراساته إجراء مقارنات منظمة لمتغيرات نفسية في ظل ظروف ثقافية متنوعة، بهدف تحديد نطاق تعميم النظريات النفسية الكلية.
- تستخدم الاستبانات عادة في جمع بيانات الدراسات عبر الثقافية، وتُسحب عينات كبيرة الحجم.
- يحرص الباحثون على تحقيق اشتراطات تكافؤ القياس للأدوات عبر نطاقات ثقافية متنوعة.
- يُنظر فيه إلى البيئة الثقافية باعتبارها "متغيرات مستقلة"، قد تثير النمو النفسي أو تفقره.

منحى السرعة العقلية

• يرى أنصار هذا المنحى أن اختبارات الذكاء التقليدية قاصرة في تفسيرها للفروق الفردية في الذكاء؛ نظرا لما تتضمنه من بنود شديدة التعقيد، تعتمد في حلها على المعلومات المكتسبة والخبرات السابقة، مما يزيد من صعوبة قياس مكونات معالجة المعلومات المتضمنة في أداء هذه الاختبارات. فكل ما تتيحه نتيجة الشخص على أي من هذه الاختبارات، معرفة إذا كان قد توصل إلى الاستجابة الصحيحة، أم لم يتوصل إليها. ولا تعطي هذه النتيجة دلالات عن طبيعة الفروق بين الأفراد الذين توصلوا إلى الاستجابة الصحيحة، ومن فشلوا في ذلك

(Jensen ,1998).

افتراضات منحى السرعة العقلية

• **العامل العام لسبيرمان:** يؤرخ لهذا المنحى بنظرية سبيرمان Spearman في الذكاء، التي افترض فيها وجود نية أحادية، تعزى إليها الفروق الفردية في مختلف القدرات العقلية، يُطلق عليها الذكاء العام، أو العامل العام. "الطاقة العقلية".

• **نموذج الفاعلية العصبية:** فسّر كل من هب Hebb، وفيرنون Vernon العامل العام في ضوء مفاهيم، ومحددات بيولوجية (نموذج الفاعلية العصبية). وطرحاً ثلاث فرضيات رئيسية:

١. **الأولى:** تتطلب المهام المتضمنة اختبارات الذكاء عمليات معالجة معرفية مشتركة؛

٢. **الثانية:** تأخذ عمليات المعالجة مكانها في الذاكرة قصيرة المدى، أو الذاكرة العاملة.

٣. **الثالثة:** تتسم الذاكرة العاملة بثلاث خصائص تحد من مدى فاعليتها: ١- محدودية السعة؛
٢- فقدان المعلومات المخزنة وتلاشيها؛ ٣- التزامن بين عمليات معالجة المعلومات وتخزينها.

وُنظر إلى سرعة معالجة المعلومات على أنها الخاصية الرابعة التي تعدل تأثير الخصائص الأخرى، بما لا يؤدي إلى تجاوز سعة الذاكرة، ويسمح بمعالجة المعلومات قبل أن تتلاشى.

تابع... افتراضات منحى السرعة العقلية

- **جنسن Jensen والأسس الوراثية للذكاء:** يُنسب إلى جنسن (Jensen, 1969) الإسهام الأكبر في التأسيس النظري لهذا المنحى، وفي وضع الأطر التجريبية لدراسته:
- يزعم جنسن (٢٠٠٦) وجود قانونين رئيسيين، ثبتت صحتهما:

١. **زيادة الفروق الفردية** في التعلم والأداء مع زيادة تعقيد المهمة.

٢. **زيادة الفروق الفردية** في الأداء مع زيادة **مستوى التدريب** واكتساب الخبرات، ما لم تكن المهمة تفرض سقفا منخفضا من الكفاءة.

ولهذا، فإن المحاولات الناجحة لزيادة كفاءة أداء جماعة ما، قد ترفع المتوسط الكلي لهذه الجماعة، إلا أن هذا يزيد في الوقت ذاته من تشتت الفروق الفردية داخل هذه الجماعة. وينطبق الأمر ذاته على الفروق بين الجماعات. ويضع هذا المجتمع أمام معضلة عويصة، حيث يصبح من الصعب الموازنة بين متطلبات مختلف شرائح المجتمع في الحصول على فرص متساوية.

المهام المعرفية الأولية

• ستخدم أنصار هذا المنحى المهام المعرفية الأولية elementary cognitive tasks في التحقق من فرضياتهم. وذلك لعدد من الأسباب:

١. بسيطة.

٢. تتطلب عددا محدودا من العمليات المعرفية لأدائها.

٣. يؤديها معظم الأشخاص دون صعوبة تذكر لكونها متحررة من المضامين الأكاديمية، والخبرات السابقة.

٤. لا تحتاج لتدريب مكثف.

٥. الاستجابات الصحيحة محددة تحديدا صارما.

٦. تستخدم مقياسا عالميا في قياس الفروق الفردية (الوقت).

لهذا، يُفترض أنها تعكس الخصائص العصبية الرئيسة للمخ، مثل وقت النقل transmission time، ووقت التوصيل conduction time، أو الفاعلية العصبية neural efficiency. وبمعنى آخر، سرعة المعالجة، أو العامل العام الذي يمكن في ضوءه تفسير الفروق الفردية في الذكاء.

أنواع المهام المعرفية الأولية

• صنف شيرد وفيرنون (Sheppard & Vernon, 2008) في ضوء خمس فئات رئيسية:

١. **مهام زمن الرجوع**، أو ما يُشار إليه بالمهام من نمط إطار- هيك Hick paradigm-type tasks .
٢. **مهام سرعة عقلية عامة**، مثل تلك التي تقيس سرعة أداء الأشخاص لعمليات حسابية بسيطة أو الربط بين أرقام وأحرف هجائية تتوزع بطريقة عشوائية على ورقة الاختبار .
٣. **مهام سرعة المعالجة في الذاكرة قصيرة المدى**، مثل مهمة سترنبرج للمسح الذاكري Sternberg's memory-scanning task .
٤. **مهام سرعة الاستدعاء من الذاكرة طويلة المدى** . ومن أمثلتها، مهمة بوسنر لمضاهاة الحروف Posner's letter matching task .
٥. **مهام زمن المعاينة** inspection time tasks، ويُطلب فيها من الأشخاص إصدار حكم إدراكي، قائم على المقارنة بين تنبيهين في ضوء محك محدد (مثل: أي الخطين أطول من الآخر) .

الأدلة المؤيدة لفرضيات منحى السرعة العقلية

- ارتباط العامل العام بمتغيرات بيولوجية: حجم المخ، ومعدل أيض الجلوكوز في المخ، وكمون وسعة استجابة الجهد المستثار في القشرة المخية، وسرعة التوصيل العصبي في المخ.

- يُنبئ العامل العام بالمسار المستقبلي للفرد: يمتد دور العامل العام ليشمل المسار الأكاديمي والوظيفي، والحياة الاجتماعية، والتعامل بنجاح مع متطلبات الحياة العصرية، وتحديد ما يحصل عليه الفرد من فرص. وأكثر من هذا، تذهب جوتفريدسون Gottfredson وديري (2004) Deary إلى أن الفروق في القدرة العقلية العامة تنبئ بمآل الحالة الصحية، والعمر المتوقع للمرء (Gottfredson, 1997).

• تابع ... الأدلة المؤيدة لفرضيات منحنى السرعة العقلية

• **يفسر العامل العام الفروق بين الجنسين:** يحصل الذكور على متوسط أعلى في بعض إختبارات القدرة المكانية، والاستدلال الرياضي، بينما الإناث يحصلن على متوسطات أعلى في إختبارات التذكر، والقدرة اللفظية، والتأزر الحركي داخل الحيز الشخصي.
(Lynn, 1994; Voyer, Voyer & Bryden, 1995).

• أشار جاكسون Jackson وراشتون Rushton (2006) إلى أن الفروق بين الجنسين في حجم المخ، والعلاقة بين حجم المخ والقدرات المعرفية تقتضي إعادة النظر في قضية الفروق بين الجنسين في العامل العام. وكشفت دراستهما عن أن:

١. الفروق بين الجنسين في العامل العام تصل إلى ٣٦. ٣ نقطة.

٢. الفروق بين الجنسين في العامل العام موجودة في كل المستويات الاجتماعية الاقتصادية.

٣. الفروق بين الإناث والذكور موجودة في كل المجموعات العرقية.

تابع ... الأدلة المؤيدة لفرضيات منحى السرعة العقلية

• يفسر العامل العام الفروق العرقية في كفاءة الأداء: بدأ الاهتمام بهذا الجانب بدراسة مثيرة للجدل أجراها جنسن (Jensen, 1969) عن مدى فاعلية برامج التدريب في زيادة مستويات الذكاء والتحصيل الدراسي. وخلص منها لعدد من النتائج، أهمها:

١. أن الفروق الفردية في القدرة العقلية العامة ترجع لمحددات وراثية.
٢. أن الفروق الطبقية الاجتماعية تقوم على الأرجح على مكون وراثي نظراً لكون الحراك الاجتماعي يرتبط بالقدرة العقلية العامة.
٣. أن الفروق بين جماعات البيض - والسود في معامل الذكاء ترجع إلى مكون وراثي.

• قدم كل من راشتون Rushton وجنسن Jensen (2005) أدلة أخرى تؤيد أن الفروق بين البيض والسود في الذكاء العام ترجع إلى فروق بيولوجية المنشأ:

١. تكرار الحصول على فروق بين البيض والسود والشرق آسيويين في معامل الذكاء، وزمن الرجوع، وحجم المخ.
٢. العلاقة العكسية بين الفروق في خصائص المخ والفروق بين البيض والسود والشرق آسيويين في نضج الجسم.
٣. ارتباط مستوى الذكاء بدرجة ضعيفة بحجم الجمجمة (٠.٢٠)، وبدرجة مرتفعة بكتلة المخ (٠.٤٠).
٤. ارتباط الاختبارات الفرعية لمقاييس الذكاء، وكذلك الاختبارات التي تقيس المحددات الوراثية والبيولوجية للذكاء بالعامل العام.
٥. ارتفاع وراثته الذكاء مع العمر (داخل السلالات)، وانخفاض تأثير المتغيرات البيئية في الذكاء خلال مرحلة المراهقة (دخل الوالدين، والتعليم، وفرص التدريب).
٦. الفروق بين البيض والسود والشرق آسيويين في كثير من المتغيرات البيولوجية (إنجاب توائم، ووقت الحمل، ونسب الجنس عند الولادة)، والمتغيرات الاجتماعية (الامتثال للقوانين، واستقرار الزواج).
٧. الفروق بين الجماعات في الممارسات الثقافية، والمزايا الاقتصادية والاجتماعية.

- اتسعت دائرة النقاش بعد أن كشف لين Lynn (٢٠٠٦) عن أن متوسط ذكاء المواطنين الأمريكيين الذين ينحدرون من أصول شرق آسيوية يزيد عن متوسط ذكاء المواطنين الأمريكيين من البيض.

متوسط الذكاء	السلالة
١٠٥	الشرق آسيوية (اليابانيين، والصينيين، والكوريين)
١٠٠	الأوروبية
٩١	الأسكيمو
٨٧	جنوب شرق آسيا
٨٧	سكان أمريكا الأصليين (الهنود)
٨٤	جنوب آسيا وشمال أفريقيا
٦٧	جنوب الصحراء الأفريقية
٦٢	سكان أستراليا الأصليين
٥٤	قبائل البوشمن في صحراء كلهاري والبيجمي في الكونجو

الانتقادات الموجهة لمنحى السرعة العقلية

- أشار جاردنر Gardner إلى أنه على الرغم من الارتباط الموجب بين معاملات الذكاء العام والنجاح الأكاديمي، إلا أنها لم ترتبط بالنجاح في الحياة العملية.
- تتضمن المهام المعرفية الأولية، والاختبارات التقليدية للذكاء بنودًا لا ترتبط بمشكلات الحياة اليومية (Sternberg & Hedlund, 2002).
- تنطوي افتراضات هذا المنحى على قدر كبير من الخطورة؛ لا لافتراضها وجود ركائز بيولوجية تكمن وراء الفروق الفردية في الذكاء، ولا عزوها هذه الفروق إلى محددات وراثية (Mackintosh, 1986)، وإنما لزعمها بأن هذه الفروق البيولوجية عرقية المنشأ. ويبدو أن هذا المنحى يحمل بين طياته دعاوى عنصرية بغیضة تبرر التمييز، والاضطهاد الذي تعرضت له كثير من الجماعات العرقية عبر حقب طويلة، وما زالت تتعرض له، بل إنه يبرر استمرار مثل هذه الممارسات، ويشرعنها.

تابع ... الانتقادات الموجهة لمنحى السرعة العقلية

- نتائج جنسن (Jensen, 1987) التي تشير إلى تزايد العلاقة بين سرعة معالجة المعلومات والذكاء مع تزايد تعقيد المهام المعرفية الأولية، لم تكرر في عدد من الدراسات التالية. وعلى سبيل المثال، لاحظ فراي (Frey, 2006)، أن زيادة مستوى تعقيد المهام المعرفية الأولية لم يؤد إلى تغيرات مماثلة في تشبعت هذه المهام على العامل العام. وأثارت هذه النتيجة دهشته، مما دفعه للقول "ليس من الغريب فشل كثير من الباحثين في تكرار نتائج دراسة جنسن ١٩٨٧ حول العلاقة بين مستوى تعقيد المهام المعرفية الأولية ومستوى الذكاء!
- على الرغم من أن هذا المنحى قائم على افتراض وجود عامل عام يفسر الفروق الفردية في مختلف القدرات العقلية، إلا أنه لا يوجد اتفاق عام على ماهية هذا العامل (هل هو سرعة المعالجة، أم سعة الذاكرة العاملة؟). أم مجرد بنية إحصائية تتغير بتغير الاختبارات.
- أشارت نتائج دراسة أجراها كل من نوبياور Neubauer وبينسشيك Benischke (٢٠٠٢)، إلى أن المجتمعات الغربية تؤكد على الوقت والسرعة كمعايير للكفاءة في أداء مختلف مهام الحياة اليومية. ولذلك، فإن العلاقة بين سرعة معالجة المعلومات والذكاء ربما تكون ناجمة عن عوامل ثقافية، يُحتمل عدم تكرارها في مجتمعات غير غربية لا تؤكد على مثل هذه المعايير

تابع ... الانتقادات الموجهة لمنحى السرعة العقلية

• يُعدُّ أثر فلين The Flynn effect من أهم الأدلة التي تدحض فرضية العامل العام. ويُنسب هذا الأثر إلى جيمس فلين James R. Flynn، الذي كشف في دراسة له (Flynn, 1987)، راجع فيها متوسطات الذكاء لدى عينات مستمدة من ٢٠ دولة بأوروبا وأمريكا الشمالية، عن حدوث زيادة في متوسطات الذكاء عبر الأجيال. وقدرت هذه الزيادة بثلاث نقاط عبر كل عقد من الزمن. وتجسدت في القدرة على حل المشكلات المجردة والاستدلال اللفظي بصورة أكبر من القدرة على اكتساب المعلومات. وقد أرجع فلين (Flynn, 2007) هذه التغيرات في متوسطات الذكاء إلى تأثير العوامل البيئية المرتبطة بالحدثة، وما تعنيه من عائلات صغيرة الحجم، وفرص تعليم أفضل، وبرامج رعاية صحية ملائمة، وأعمال تتطلب قدرات عقلية مجردة، واستخدام مكثف للتكنولوجيا.

أهم الانتقادات الموجهة لدراسات علم النفس عبر الثقافي

• **التمركز حول الثقافة الغربية:** تسعى الدراسات عبر الثقافية لتحديد شروط تعميم فرضيات ونظريات نفسية، انتجت في سياقات ثقافية غير ممثلة لكافة الثقافات البشرية، تسليمًا بأنها أساسية وكونية وتنطبق على كل الثقافات، دون أي فحص حقيقي لتلك الافتراضات في ثقافات أخرى (Shweder, 2000).

• **إخلاقها بشرط التمثيل:** وضع رواد الدراسات عبر الثقافية الأوائل آمالًا عريضة على تعزيز التواصل بين باحثين من ثقافات متنوعة، واستخلاص مبادئ كلية تنطبق على جميع البشر بغض النظر عن تنوع سياقاتهم الثقافية. ووفقًا لآرنت Arnett (٢٠٠٨) لم تتحقق تلك البشارة، وظلت النظريات والممارسات النفسية متركزة حول الثقافة الأمريكية، والأدهى من ذلك إنها فيما يبدو غير واعية بالتنوعات الثقافية داخل المجتمع الأمريكي ولا بما يرتبط بها من تأثيرات متباينة.

أهم الانتقادات الموجهة لدراسات علم النفس عبر الثقافي

• برهن أرنوت (٢٠٠٨) على صحة استنتاجه بتحليل البحوث المنشورة في ست مجلات رئيسة لعلم النفس:

١. تنحصر عينات هذه البحوث في فئة محدودة للغاية من **المجتمع الأمريكي**، وأن الأمريكيين في مجملهم يشكلون نسبة أقل من **٥% من سكان العالم**.
٢. **٦٨%** من العينات المستخدمة من سكان **أمريكيين**.
٣. **٢٨%** من عينات الدراسات مسحوبة من **مجتمعات صناعية** غربية (كندا، أوروبا، أستراليا، نيوزيلندا، إسرائيل).
٤. **٣%** آسيا؛
٥. **١%** من أمريكا اللاتينية.
٦. أقل من **١%** من **أفريقيا والشرق الأوسط**.
٧. العينات المستخدمة في هذه المجتمعات غير ممثلة لجميع السكان تمثيلا جيدا.
٨. حوالي **٦٧%** من الدراسات الأمريكية المنشورة في مجلة علم النفس الاجتماعي، ومجلة الشخصية وعلم النفس الاجتماعي، أجريت على عينات من **الطلاب** الجامعيين، وتزداد النسبة في دول أخرى لتصل إلى **٨٠%**.

أهم الانتقادات الموجهة لدراسات علم النفس عبر الثقافي

• **عدم تكافؤ البناءات والمفاهيم المعرفية في مختلف الثقافات.** ويستشهد ترينديز (٢٠٠٠) في هذا الصدد بدراسة أجراها سنة ١٩٧٦ على مجموعتين من الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية: ضمت الأولى أشخاصا لم يحصلوا على وظيفة أبدا، وضمت الثانية أشخاصا سبق لهم الحصول على وظائف. وقد كشفت نتائج تلك الدراسة عن طريقة فريدة في إدراك من لم يحصلوا على وظيفة للبيئة الاجتماعية، أطلق عليها "**عدم الثقة في النسق البيئي** ecosystem distrust". ويعكس هذا النمط من الإدراك عدم الثقة في الأشخاص الآخرين حتى وإن كانوا وثيقي الصلة بهم (مثل أمهاتهم). وتبين له أيضا أنهم لا يجدون أي صلة منطقية بين الأحداث والمتربات، وكانهم لا يثقون في أن هناك عواقب يتحتم وقوعها عند القيام بأحداث معينة.

• كشف مينون Menon وشودر Shweder (١٩٩٤) عن وجود اختلاف واضح بين رؤية الأمريكيين والهنود لانفعالات **الغضب والخزي والسعادة**. فبالنسبة **للأمريكيين**، توجد صلة وثيقة بين انفعالات الخزي والغضب، ويؤكدون على اختلافهما تماما عن انفعالات السعادة. في مقابل ذلك، يرى **الهنود** أن الغضب يختلف عن كل من الخزي والسعادة، إذ أنه يدمر العلاقات الاجتماعية. أما الخزي والسعادة فهما وثيقا الصلة ببعضهما البعض، إذ أنهما أشبه ما يكون بغراء يزيد من متانة العلاقات الاجتماعية.

أهم الانتقادات الموجهة لدراسات علم النفس عبر الثقافي

• **مستوى الدافعية:** يختلف مستوى دافعية الإجابة بصدق وإتقان من ثقافة لأخرى. وقبول بعض الثقافات لطرق دراسة معينة، ورفضها لطرق أخرى. وشيوع وجهة الاستجابة في بعض الثقافات يجعل من تكافؤ القياس موضع شك (Triandis, 2000).

• **الفجوة الثقافية:** يصعب استخدامها في حالة وجود فجوة ثقافية كبيرة بين الباحث والمشاركين، مما قد يعرقل التواصل الفعال فيما بينهم. فضلا عن أن نتائجها تتأثر بطبيعة التفاعل الذي قد ينشأ بين الباحث وبين نوعية محددة من المشاركين.

أهم الانتقادات الموجهة لدراسات علم النفس عبر الثقافي

- **اختلاف السياق التاريخي التطوري للثقافات:** انتقد عالم النفس الروسي ليف فيجوتسكي Lev Vygotsky مسلمات علم النفس الرئيسة، القائلة بوجود عمليات معرفية واجدة، غير متغيرة، وكونية، وتعمل بنفس الطريقة في مختلف السياقات، وعبر الثقافات والحقب الزمنية. ووضع مسلمات أخرى، مفادها: بتقيد تطور البناءات المعرفية **بالخبرات والنشاطات العملية** السائدة في ثقافة ما. واقترح فيجوتسكي أن أي وظيفة نفسية عليا تظهر عند مستويين: تظهر أولاً في السياق الاجتماعي بين الأشخاص، وتظهر بعد ذلك في سياق نفسي داخل الشخص (Wertsch & Tulviste, 1992).
- **دراسة لوريا** وزملاؤه في ثلاثينيات القرن الماضي على الفلاحين الأوزبك:
 ١. نساء ريفيات أميات لم يشاركن في الأنشطة الاقتصادية الرسمية.
 ٢. رجال أميون يعملون في الفلاحة التقليدية.
 ٣. ناشطون شباب يشاركون في المزارع الجماعية (كان بعضهم ملماً بالقراءة والكتابة).
 ٤. نساء يحضرن دروس صفية.
- افترض فريق العمل أن الاستدلال المنطقي إذا كان خاصية عالمية للعقل فإنه لن يتأثر بالتغيرات التاريخية الثقافية؛ ولن تلاحظ فروق في الاستدلال المنطقي بين المجموعات الأربع.

• تمثل الملمح المميز للاستدلال القياسي في المجتمعات الثقافية التقليدية في العيانية الشديدة المرتكزة على المعارف الشخصية المباشرة. ويبدو أن الفشل في حل مشكلات الاستدلال المنطقي لدى هذه الجماعات الثقافية لا يرجع إلى افتقادهم القدرة على الاستدلال المنطقي؛ فقد كشفت الأدلة عن إعراض أو عدم تحييد أعضاء هذه الجماعات الثقافية للمعالجات المنطقية المجردة التي تتنافى مع خبراتهم الشخصية المكتسبة من أداء الأنشطة الحياتية التقليدية (Luria, 1971).

• **دراسات الأنثروبولوجيا التجريبية:** أجرى كول وزملاؤه Cole (١٩٧١) دراسة عن دور السياق الثقافي في التعلم والتفكير على قبيلة الكبيلي Kpelle في شرق أفريقيا. كشفت عن أن تصنيف أفراد قبيلة الكبيلي يستند في المقام الأول على الجوانب الوظيفية للأشياء. ولاحظوا كذلك، لاحظ الفريق البحثي براعة واضحة لدى أعضاء هذه القبيلة في القياس. وتجسدت في وجود نسق قياس ومفردات قياس معقد للغاية. ولاحظوا أن وحدات القياس المستخدمة تثقف على طبيعة الشيء المقاس أو مساقته. وفسروا ذلك في ضوء أن الأشخاص يبرعون في أداء المهام التي ينبغي عليهم الانغماس دوما في أدائها.

أهم الانتقادات الموجهة لدراسات علم النفس عبر الثقافي

• **دراسات ما فوق الجينات:** شهدت هولندا في العام الأخير من الحرب العالمية شتاء قاسيا جدا (١٩٤٤-١٩٤٥)، وتعرضت لمجاعة توفي من جرائها ما بين ١٥٠٠٠ إلى ٢٥٠٠٠ مواطن هولندي جوعا. أجريت دراسات تتبعية مستفيضة للتحقق من تأثيراتها. وكشفت نتائجها عن:

١. ارتفاع نسبة الولادات المبكرة.
٢. ارتفاع نسبة السمنة والإصابة بالسكري والدهون الضارة.
٣. ارتفاع نسبة الإصابة بالاضطرابات الوجدانية والفصام.
٤. ارتفاع نسبة الوفيات المبكرة لديهم أعلى ١٠% مقارنة بمن ولدوا قبل المجاعة أو بمن حملت فيهم أمهاتهم بعدها.

فسرت هذه النتائج في ضوء حدوث تغيرات جينية لدى الأجنة نتيجة للمجاعة التي تعرضوا لها.

أهم الانتقادات الموجهة لدراسات علم النفس عبر الثقافي

• تأثير الأنشطة العملية في البناءات المخية: ترتبط بناءات مخية محددة بوظائف

معرفية بعينها . وعلى سبيل المثال، لوحظ أن منطقة حصان البحر تلعب دوراً رئيساً في توطيد الذكريات وعمليات التعلم المعقدة. ويُعرف عن سائقى التاكسي أنهم يميزون بدقة فائقة في معرفة مختلف الطرق واقصرها . وبالتالي، تساءل العلماء، هل تنمو المناطق المسؤولة عن الملاحة المكانية لدى سائقي التاكسي بحجم أكبر نسبياً مما لدى غيرهم من البشر؟

• بالفعل، كشفت دراسات التصوير المخي عن أن المنطقة الخلفية لحصان البحر لدى سائق التاكسي أكبر حجماً مما لدى مجموعات أخرى من البشر، ممن يعملون في مهن أخرى . وربما تنتقد هذه الدراسة بان الأشخاص الذي يمتازون بحجم أكبر نسبياً لمنطقة حصان البحر قد يفضلون العمل كسائقي تاكسي . لكن نتائج الدراسة كشفت عن ان حجم منطقة حصان البحر توقف على عدد سنوات ممارسة هذه المهنة . ويعني هذا ان احجام بناءات مخية محددة قد تتغير نتيجة للتعرض لخبرات محددة . (Baars & Gage, 2010).

خلاصة القول

- بدو أن افتراض وجود نسق نظري تفسيري واحد قابل للتطبيق على كل البشر في كل الثقافات افتراض غير مبرر بما يكفي (Poortinga, 1999)، وقد يفضي إلى استدلالات خاطئة (Straub, 2002; Praslova, 2007). ووفقا ليري وزملائه (١٩٩٢)، ينظر الباحثون الغربيون إلى الثقافات الأخرى من منظور غربي، ويفرض عليهم ذلك اختيار موضوعات، وطرق وأدوات بحث محددة، قد لا تناسب مع هذه الثقافات، وتغيب عنهم ملاحظة خصائص مميزة لهذه الثقافات، ليس لتحيزهم، وإنما لافتقادهم المخططات المعرفية اللازمة لفهم هذه الخصائص. ويرى ماركوس Markus وكيثاياما Kitayama (١٩٩١) أن ما يؤخذ باعتباره من المسلمات في ثقافة ما، أو يُنسى قدره عن عمد، أو يُتجاهل دون قصد، قد يكون محوريا وجوهريا في ثقافة أخرى.
- وبالنسبة لمن ينتمون لثقافات غير غربية من الباحثين، فإنهم قد يتورطون في تطويع مفاهيم وخصائص ثقافية فريدة لتتسق مع مسلمات ومفاهيم بعيدة كل البعد عن واقعهم وثقافتهم. وهم بذلك لا يضيفون نتائج ذات قيمة علمية في تفسير الظاهرة، ويفتقدون تكوين فهم مترابط لخصوصيتهم الثقافية.